

## التصميم الذكي عند "فرانسوا جاكوب"

د. إبراهيم رزوق\*

علاء الحسين\*\*

(تاريخ الإيداع 3 / 4 / 2017. قبل للنشر في 22 / 6 / 2017)

### □ ملخص □

يرى الفيلسوف الفرنسي فرانسوا جاكوب أن برهان التصميم للعالم الحي قديم النشأة وقد شكل لفترة طويلة أهم مرتكزات الإيمان للإنسان إلا أن الانضباط والتعقيد البالغ الدقة في العالم شكل ولفترة معينة بديهية عقلية للعلوم التطبيقية لا تحتاج إلى تفسير، إلا أن التساؤلات العديدة التي ظهرت فيما بعد حول مصدر هذا الانضباط شكلت أحد أكبر المعضلات أمام من يرى أن الكون نظام مغلق من المادة والطاقة ليس له أي مدد من الخارج وبين من يرى وجود التعقيد والغائية في كل جزء من أجزائه . وبالرغم من تبني العلم ولفترة طويلة للفكر التطوري وتبني المفاهيم الخاصة به ومنها مفهوم المصادفة التي تقصي التصميم الغائي ، إلا أن الأبحاث البيولوجية الحديثة دفعت بالتصميم إلى أن يصبح نظرية علمية متكاملة الأبعاد تتصدى لمسألة نشأة الكائنات الحية، لأن طبيعة الكائنات والأجزاء التي تتكون منها والتي كشفتها الدراسات الجزيئية وعلى وجه التحديد شريط (دنا) المبره المسؤول عن كل صفات الكائن الحي تحتاج في نشأتها وبقائها وعملها إلى ذكاء فلا يمكن للعشوائية أن تفسرها إضافة ، إلى أن أبداع الذكاء لأي شيء يفرض ظهور علامات التصميم عليه وفي ضوء هذا الجدل بين النقيضين قمنا بتقديم هذا البحث عن أحد أبرز المفاهيم في البيولوجيا المعاصرة .

الكلمات المفتاحية : الكون ، المادة ، الطاقة ، المصادفة ، البيولوجيا .

\* أستاذ، قسم الفلسفة ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة تشرين ، اللاذقية ، سورية .

\*\* طالب دراسات عليا ( ماجستير ) ، قسم الفلسفة ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة تشرين ، اللاذقية ، سورية .

## Smart Design by François Jacob

Dr. Ibrahim Razzouk\*  
AaLLa AL Husen\*\*

(Received 3 / 4 / 2017. Accepted 22 / 6 / 2017)

### □ ABSTRACT □

The French philosopher Francois Jacob believes that the proof of design for the living world has long been established and has for some time been the most important pillar of faith for man. However, the discipline and complexity of the world's precision and for a certain period of time set the axiomatic mentality of the applied sciences that need no explanation. This discipline formed one of the greatest dilemmas before anyone who sees that the universe is a closed system of matter and energy has no extension from the outside and among those who see the existence of complexity and telemetry in each part of its parts. Despite the adoption of science and a long period of evolutionary thought and the adoption of its own concepts, including the concept of coincidence, which investigates the design of teleology, but modern biological research has pushed the design to become a scientific theory of integrated dimensions address the issue of the emergence of living organisms, because the nature of the objects and the parts that are formed and revealed by studies Molecularity and specifically the dazzling DNA that is responsible for all the characteristics of the organism needs its origin, its survival and its work to be intelligible. Randomity can not be explained by the fact that the creativity of intelligence for anything imposes the appearance of design marks on it We have presented this research on one of the most prominent concepts in contemporary biology .

**Keywords:** universe, matter, energy, coincidence, biology.

---

\*Professor, Department of Philosophy, Faculty of Arts and Humanities, Tishreen University, Lattakia , Syria.

\*\* postgraduate Study Student , Master's Degree , Department of Philosophy, Faculty of Arts and Humanities, Tishreen University, Lattakia , Syria.

## مقدمة :

واجه العلم في مراحل تطوره الأولى الكثير من الأسئلة عن السبب الكامن وراء وجود الأشياء، والظواهر كما هي ومن بينها الإنسان والكائنات الحية في إطار سعيه لتجاوز الغموض الذي أحاط بالكائنات الحية ، و تجسد بالطابع الميتافيزيقي عن طريق المماثلة بين الكائنات الحية لإلغاء فكرة ثبات الأنواع وانفصالها عن بعضها بعض. فالنظر إلى الكثير من الظواهر البيولوجية يظهر فيها تدرجاً عالي الدقة وتنظيماً مذهلاً في الأعضاء ووظائف هذه الأعضاء يطرح الكثير من التساؤلات عن إمكانية المصادفة أمام هذا التعقيد الهائل ، كما أن تكنولوجيا القرن العشرين قد كشفت لنا أن الخلية وهي أصغر وحدة حية هي أكثر النظم التي واجهتها البشرية تعقيداً حيث أن أبسط الخلايا تشكل آلية أعقد بكثير من أي آلة صنعها الإنسان أو تخيل صنعها في المستقبل . والسؤال الذي لا بد من الإجابة عليه هل من الممكن أن يكون كل هذا النظام الذي لم تستطع البشرية إنتاجه رغم الذكاء والمعرفة الموجودة تحت تصرفها قد أوجدته المصادفة العبثية أم أن التطور الموجه هو الذي أدى إلى هذا التصميم.

## أهمية البحث وأهدافه :

تكمن الأهمية العامة لهذا البحث بأنه يوضح الدور الذي تقوم به الإبيستيمولوجيا في سياق تقدم المناهج العلمية بمعالجة المفاهيم الجديدة التي يطرحها تقدم العلوم ، ومن ضمنها البيولوجيا التي تكتسب أهمية بالغة في حياتنا المعاصرة ، حيث تعتبر العمود الفقري لحضارة القرن الواحد والعشرين، نظراً لما تثيره من مشاكل وموضوعات تلامس حياتنا الاجتماعية وواقعنا وتؤدي إلى تغير وجهة نظر الإنسان بنسبة للطبيعة وإلى تغير إدراك الإنسان لذاته، لأن هذه الثورة البيولوجية واجهت الإنسان بتغيرات غير مألوفة ولأول مرة وصلت إلى أعماق كيانه، وحياته وبنائه الوراثي ، وحطمت العلاقات التقليدية ووضعت قيم الإنسان المتعارف عليها وتصوراته لكل شيء موضع الشك والنقد والتغيير . يهدف البحث لتقديم دراسة وصفية مقارنة لمفهوم التصميم الذكي في البيولوجيا المعاصرة، متتبعباً بصمات هذه المفهوم في مراحل تطوره المتعددة ، محاولاً تبيان السبب الذي أجبر العلوم، ومن ضمنها البيولوجيا المعاصرة إلى الأخذ بهذا المفهوم وإظهار التخوم الفاصلة بين الاتجاهات الفكرية المختلفة ما بين مؤيد ومعارض لهذا المفهوم ، مع الوقوف على مسألة هامة جداً ورئيسية هي حقيقة التناقض الواضح بين ظاهر الكائنات الحية التي يمكن اختصارها إلى مجموعة من الذرات الفاقدة للإحساس والوعي وبين التصميم البالغ الدقة لهذه الكائنات ولأعضاء هذه الكائنات .

## منهجية البحث :

استخدمنا في هذا البحث أكثر من منهج ذلك أن هذا البحث يتناول حقلاً علمياً هو في الأساس حقلاً تجريبيً ونعني بذلك البيولوجيا، وهذا يقتضي اقتفاء واتباع المنهج الوصفي المقارن سبيلاً لفهم طبيعة البحث البيولوجي ، ومن جهة أخرى فإننا نجد أنفسنا بحاجة ماسة إلى المنهج النقدي التاريخي الذي هو من أهم المناهج الإبيستيمولوجية ، طالما أن البحث يعتبر محاولة لتقديم دراسة إبستيمولوجية عن هذا المفهوم من وجهة نظر الفيلسوف الفرنسي فرانسوا جاكوب.

## أولاً :مدخل اصطلاحى وتاريخي:

يتضمن هذا المفهوم فكرة مفادها أن بعض الميزات في الكون والكائنات الحية لا يمكن تفسيرها إلا من خلال أسباب وعلل تمثل مظهر للدليل الغائي لوجود الله والذي يطرح ذاته على أنه قائم على أدلة علمية بدلاً من الأفكار الدينية وتم تعديله لتجنب الحديث حول ماهية المصمم أو طبيعته، وهي بحسب مؤيديها نظرية علمية تضاهي النظريات

المعاصرة التي تتعلق بالتطور وأصل الحياة وترتكز فكرة التصميم الذكي على مفاهيم أساسية في التعقيدات المتخصصة وغير القابلة للإختزال التي تدعي أن هناك أنظمة بيولوجية معقدة بشكل معين حيث لا يمكن تكونها عن طريق طبيعة عشوائية وهناك أيضاً مفهوم التوافق الدقيق للكون الذي يدعي بأن الكون قد صقل بعناية ليسمح بظهور الحياة على الأرض .

ففي عام 1859م أصدر " داروين " كتابه أصل الأنواع الذي أصبح أشهر الكتب البيولوجية التي تحاول تفسير نشأة الحياة في هذا الكون وأكثرها إثارة للجدل . حيث وضع في كتابه نظرية تنص على أن جميع الكائنات الحية قد تطورت من كائنات أخرى أقل تعقيداً حيث إن الطفرات الوراثية والانتخاب الطبيعي قد عملا سويةً على إنشاء كائنات أكثر تطوراً من أسلافها فسيطرت هذه النظرية على الأوساط العلمية بشكل كبير إلى أن تم اكتشاف (دنا) الخلية للمرة الأولى حيث اكتشف العلماء للمرة الأولى عالم كامل داخل الخلية وإنما أبعد ما تكون عن البساطة ، حيث بدأ العديد من العلماء بعد هذا الإكتشاف بالتشكيك في مسألة نشأة الحياة فليس من الممكن أن يكون هذا التعقيد الهائل تمّ بمحض المصادفة بل يبدو أنه تم تصميمه عن عمد من قبل مصمم ذكي خارق على سبيل المثال إذا وجد أحد علماء الآثار تمثالاً مصنوعاً من الحجر في حقل ما سيستنتج أن لتمثال قد صنع لأن الملاحم التي يملكها التمثال تؤكد أن هناك شخصاً ذكياً قام بإنشائه ولا تفترض أن العوامل المناخية هي قامت بنحته بهذا الشكل ولا يمكننا أن نبرر إذا وجدنا قطعة صخرية بنفس الحجم وهنا يمكننا القول إن التمثال يحمل علامات ذكاء على عكس قطعة الحجر العشوائية الشكل لذلك فأن مؤيدو التصميم يعملون على البحث عن الأنظمة البيولوجية التي تحمل علامات الذكاء الدالة على أنها لم تنشأ عن محض الصدفة وهي ما يسمى بالتعقيد الإختزالي أو التعقيدات المتخصصة<sup>1</sup>.

### ثانياً : البعد المعرفي لمفهوم التصميم الذكي:

إن النظر إلى التاريخ يوضح لنا أن نظرة الإنسان لبنية الكون المبهرة وتعقد ظواهر الحياة ، وتعدد الكائنات الحية على الأرض كانت من أعمدة الإيمان عبر التاريخ حيث لم يكن أمام الإنسان إلا القول بوجود خالق لهذا الكون وبرهان التصميم قديم جداً نصت عليه الكتب السماوية وكل الكتابات اللاهوتية ومن أبرز الأسماء التي ظهرت في هذا المجال كان " وليم بالي " صاحب برهان صانع الساعات الأعمى والذي يقوم على فكرتين ( شدة تعقيد الظواهر الحية - وجود المصمم الذكي ) إلى أن ظهر التفكير العلمي الذي تعامل مع الوجود من خلال القوانين الطبيعية المنضبطة كأمر مسلم به أما الفلاسفة فقد أصبحت مسألة العالم المنضبط والمنطقي في كل مستوياته من أكبر المعضلات التي. تدفعهم للتساؤل و مع تساؤلهم عن مصدر هذا الانضباط ومنطقيته فالخريطة المعرفية للماديين والتي تحاول إيجاد تفسير للعالم الحي تنظر إلى العالم باعتباره نظاماً مغلقاً من المادة والطاقة لا يوجد له أي مدد من الخارج وتحكمه قوانين صارمة فكل ما في الوجود تحكمه قوانين صارمة وكل ما في الوجود ظهر بالصدفة ولا وجود للإله الخالق في هذه المنظومة أي لا يوجد غائية قصد وهدف في هذه المنظومة خلف هذا الوجود والأشكال المتنوعة فيه ويرى الرياضي الشهير "بول ديفيز" هنا : (( أن العلم يعتمد على بديهية أن الكون منضبط ومنطقي في كل مستوياته ولاشك أن ادعاء الملاحدة أن قوانين الطبيعة لا ذكاء وراثتها وأن الكون في النهاية وجود عشوائي بلا عقل ولا تصميم إدعاء سخيف مضحك يجتث العلم بل الوجود كله من جذوره ))<sup>2</sup> .

<sup>1</sup> - مايكل بيهي : صندوق دارون الأسود ، تر : مؤمن الحسن ، دار الحسن للنشر والتوزيع ، ط1 ، مصر ، 2014م ، ص 221.

<sup>2</sup> - بول ديفيز : التدبير الإلهي ، تر : محمد الجواد ، دار الحصاد للنشر والتوزيع ، دمشق ، سوريا ، 2008 ، ص 248.

إلى أن جاءت النظرية التطورية وقدمت العديد من المفاهيم والفرضيات التي أصبحت أكثر صحة في الأوساط العلمية لفترة من الزمن إلا أن الإنجازات العلمية الرفيعة المستوى جعلت العلماء يرفضون الكثير من هذه المفاهيم التي أصبحت مثار للخلاف والإعتراضات الشديدة ومنها حدوث التطور في إطار النوع الواحد والذي يعني أن الكائنات تتطور مع المحافظة على نوعها حيث تحقق تكيفاً أكبر مع البيئة والسبب المباشر لهذا الرفض هو أن التقدم الكبير لعلم البيولوجيا أثبت حدوث تغيرات جذرية في الكائنات أدت إلى خروج أنواع جديدة تماماً وهو ما يعرف بالتطور من نوع آخر . كما كان من المسلمات الأخرى التي يرفضها بعضهم هو أن تؤدي الطفرات عن طريق الانتخاب الطبيعي البعيد عن التخطيط، والتصميم إلى تراكم العديد من الصفات الحسنة فينشأ الانتقال من نوع لآخر .

فالاتفاق بأن نظرية التطور بمفاهيمها المختلفة طرحت بديلاً مقبولاً عن التصميم كفكرة أساسية في البيولوجيا لم يكتب له النجاح وخاصة بعد تقدم العلم وتكشف الكثير من المعطيات عن طبيعة الحياة والكائنات الحية حيث عادت أدلة برهان التصميم إلى الواجهة وفي شكل نظرية علمية تحت أسم التصميم الذكي .

ويرى " فرانسوا جاكوب" أن مفهوم التصميم الذكي قد أصبح نظرية علمية تتصدى لمفهوم نشأة الكائنات الحية وتدور حول أن طبيعة هذه الكائنات وطبيعة الجزيئات التي تتكون منها تحتاج في نشأتها وفي بقائها وفي عملها إلى ذكاء وأنه لا يمكن للعشوائية أن تفسرها وقد أمتد هذا المفهوم ليشمل العلوم المختلفة كنشأة الكون والذكاء الإنساني ويرى الكثير من المشتغلين بالبيولوجيا المعاصرة أن هناك مجموعة من السمات والملاح إذا توفرت في موجود ما وجب القول إن فيه علامات التصميم فعندما يبدع الذكاء عملاً من الأعمال ستظهر فيه بالضرورة علامات التصميم<sup>3</sup>.

وفي أغلب الأحيان يتم عرض مفهوم التصميم الذكي بأسلوب خاطئ فيقولون إن بنية الأشياء الطبيعية تبلغ من التركيب درجة لا يمكن إرجاعها للصدفة بل ينبغي أن يكون ورائها تصميم ذكي أي أنه يتم الاستدلال على وجود التصميم بوجود التركيب فالأسئلة التي تطرح عند دراسة الأنظمة البيولوجية المتعددة كدراسة نظام الرؤية عند الإنسان تساعد في الوقوف على ماهية هذا النظام وكيفية عمله وتركيبه كما يظهر لنا أنه قد صمم لإدراك أشياء في فضاء ثلاثي الأبعاد وأشياء محددة بسطوح ذات بعدين أي أن جهاز الرؤية يعين حواف الأشياء ويبني السطوح ويؤولها إلى صيغ موضوعية بطريقة معينة للمراقب حتى تتم عملية النظر بشكل دقيق .

إلا أن الوقوف على مثل هذا الطرح يظهر خطأ لسببين أن المصادفة تكون أشياء شديدة التركيب والجمال فهطول المطر ينبت البذور التي وقعت على الأرض مصادفة فتخرج الحشائش والأشجار والأزهار التي تشكل هذا المنظر الشديد التركيب والجمال كلوحة فنية بالغة الدقة إلا أن هذا المنظر تم بالصدفة ولم يتم بالتصميم عن قصد .

إن أثبات وجود التصميم لا يكون فقط بأثبات وجود التركيب واستبعاد المصادفة لأن أغلب الأشياء حولنا هي النتائج المباشرة الحتمية لقوانين الطبيعة ووجهة نظر الغائية هنا أن المصمم قد وضع سمات التصميم في قوانين الطبيعة لكن التصميم الذي نعنيه هو ما يشبه عمل المهندس الذي يصمم العمارة بناءً على مخطط معطى ومن أشهر من تبنى هذا الفكر عالم الاحياء الشهير "مايكل بيهي" الذي قدم مجموعة من الحجج ضد حجة التطور فمن وجهة نظره أن التطورية لم تفسر من خلال الصدفة والعشوائية حيث نشأت أليات شديدة التعقيد في الكائنات الحية التي ظهرت فجأة دون أن تمر بالعديد من التعديلات البسيطة المتتالية الشديدة البطء التي يعمل من خلالها قانون التطور ومن الأمثلة

<sup>3</sup> فرانسوا جاكوب : لعبة الممكنات ، تر: احمد الصالح ، مركز الانماء القومي ، بيروت ، 1991 ، ص25.

البارزة التي طرحها أمام التطور العشوائي مفهوم الأنظمة التي تتركب من عدة مكونات منفصلة البنية ولكنها تتضافر من أجل تنفيذ مهمة أساسية معينة، وفي نفس الوقت إذا ألغى أحد هذه المكونات يتوقف النظام عن العمل تماما<sup>4</sup>. وإذا ما افترضنا صحة النظرية من وجهة نظره فإن أي حادث في برنامج المنظومة الأحيائية من شأنه أن يحسن ويسهل ولادة خلف فمن أين يرث هذا الخلف القدرة على تولد أفضل ؟

فيكون الجواب من أصحاب النظرية التطورية أن القدرة على التغير هي صفة ملازمة لطبيعة الحي ذاتها ولبنية البرنامج وللطريقة التي يعاد نسخه فيها كل جيل .

### ثالثاً : العلاقة بين الفكر الغائي و التصميم

كما يميز أصحاب النظرة الغائية بين كون الشيء موجود فقط ليستمر في البقاء أو بغاية فهم الواقع وهذا ما يراه الماديون وقد علق على ذلك أصحاب النظرة الغائية حيث اعتقدوا أنه لا يمكن اعتبار أن عقولنا المبهرة المذهلة قد نشأت لتعيننا على البقاء إنها عقول صممت من أجل البحث عن الحقيقة وعندما تناول مفهوم التصميم الذكي نرى أن العلماء الماديين في كثير من المواقع يضطرون للإقرار بوجود الذكاء في الطبيعة إلا أنهم لا يقرون بوجود التصميم الذكي والسبب هو خوفهم من الخطوة التالية وهي الإقرار بالمصمم الذكي ومن ثم الإقرار بالدين وما يترتب عليه من العودة للنظرة الضالامية القاصرة إضافة إلى أن الكثير من العلماء يستبعد مفهوم التصميم الذكي بدعوى أنه غير قابل للاختبار وقد يثبت بطلانه إذا ما تعرض للاختبار وهذا ما عبر عنه " فرانسوا جاكوب" بوضوح : (( الرسالة التي تملئها الوراثة لا تتيح من حيث بنيتها ذاتها أدنى تدخل مدبر من الخارج والظواهر التي تسهم في تغاير المتعضيات كيميائية كانت أو ميكانيكية تحصل بمعزل عن الأثر الذي ينتج عنها ))<sup>5</sup>.

والسؤال الذي يطرح نفسه ما بين ميداني العلم والدين هو أنه إذا كانت الطبيعة تشكلت حيث تبهر وتعجز أدنى العقول فهل هذا مجرد مصادفة ؟

فمن وجهة نظر التفكير العلمي لا يمكن أن يكون الإله قدرة تقف وراء مظاهر الطبيعة ، وقوانينها وتظهر من خلال خرق السنن الكونية والمعجزات كما صورته الأساطير والأديان فالأكثر دلالة هو التناغم بين احتياجات الكائنات والتصميم في كل مستويات الوجود والدقة في هذه القوانين فالنظرية الداروينية تبحث عن المنشأ المادي للظواهر ذات التعقيد غير القابل للاختزال وفي مواجهة هذا التعقيد غير القابل للتفسير يلقون الأمل على المستقبل (( الكائن الحي يسعى نحو هدف لم تقم باختياره أي ارادة ))<sup>6</sup> .

وهذا ما دفع بعض النقاد إلى القول إن النظرية التطورية لا تقدم أي تفسير لنشأة الحياة على المستوى البيوكيميائي بل كل ما تقدمه تصورات مبتورة لأمعنى لها وخاصة فيما يتعلق بالقدرة الذهنية التي تبدو لنا بحق على أنها إنجاز نوعي عالي التطور وبالتالي مستعصية على المعالجة بالطريقة التطورية التاريخية لأنه لا أساس لهذه السمة في المراحل التاريخية من التطور الذي حصل قبلنا لذلك تقف في وجه التطور ككل فجميع الأبحاث الجديدة لم تصل لمستوى الإحاطة بهذه الظاهرة لمعرفة خصائصها بشكل كامل والشي الوحيد الذي يمكن أن يقال في جميع الأبحاث أن الوعي هو محصلة لتجميع الذاكرة والقدرة على التعلم والقدرة على تبادل الخبرات والتخيل والتجريد .

وإضافة لذلك فإن فكرة السلف المشترك هي فكرة بديهية في النظرية التطورية وتعدّ موضع خلاف مع القائلين بالتصميم الذكي فالنظرية تتحدث عن خلية واحدة تظهر بالصدفة ثم تتكاثر لتظهر العديد من الخلايا دون أن يكون

<sup>4</sup> -مايكل بيهي : صندوق دارون الأسود ، تر : مؤمن الحسن ، دار الحسن للنشر والتوزيع ، ط1 ، مصر ، 2014 م ، ص 245.

<sup>5</sup> -فرانسوا جاكوب : منطق العالم الحي ، مركز الأتماء القومي ، بيروت ، 1991م ، ص 22.

<sup>6</sup> -المصدر السابق نفسه ، ص 23.

هناك تصميم أو ذكاء خلف هذا الكائن الحي أما على مستوى التصميم تبقى فكرة ثبات الأنواع الحية قائمة رغم كل المحاولات للتوفيق بين الفكرتين والخلاف الجوهرى يكمن في كيفية نشأة التعقيد الحيوي وفيما إذا كان للذكاء دور في نشوئه أم لا ؟

وفي سياق الرد على هذا الكلام يرى أصحاب النظرية التطورية أن القول بالتصميم الذكي يضعف العلم فالإبداع الأكبر الذي وقف كحجر عثرة أمام النظرية التطورية يتجلى في طريقة تنظيم مورثات ( دنا) المبهرة المسؤولة عن توجيه كل صفات الكائن الحي حيث نظر العلماء المقتنعون بالذكاء إلى تصميم الحياة بعمق أكبر وتمسكوا برأيهم إلى أن ظهرت الحقيقة التي أنكرها التطوريون العشوائيون في البداية حيث أصبح أدراك مفهوم التصميم الذكي دافعاً للبحث عن التفسيرات العلمية الصحيحة وهي من أكبر المعضلات التي تواجه عقل الإنسان كما كان من أبرز أوجه النقد الموجه للنظرية التطورية يكمن في أن أنصار النظرية التطورية لم يدركوا كما رأى بعض النقاد ما في ظواهر الحياة من تعقيد مبهر فتماهت تصوراتهم البسيطة للحياة مع قولهم بعشوائية مصدرها فمن المؤكد أن لكل ظاهرة شروطها الفيزيائية والكيميائية المحددة بشكل بدقة إلا أنها تتبع بعضها بعض في الوقت نفسه وفق تسلسل منطقي ووفق قوانين محددة كما أنها تتكرر بشكل منظم وفق ترتيب ثابت وتأتلف وفق غاية محددة وهي تعضية ونمو الفرد الحيواني والنباتي وكأن هناك مخطط مسبق لكل كائن حي ولكل عضو إذا نظر إلى كل ظاهرة في البناء بمعزل عن غيرها تبدو تابعة للقوى العامة للطبيعة وإذا ما نظر إليها من جهة علاقتها بغيرها من الظواهر فأنها تكشف عن صلة مميزة وتبدو موجهة بواسطة دليل غير مرئي في المكان الذي تشغله والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هل من الممكن النظر إلى التصميم الذكي بوصفه مفهوماً دينياً إضافة لكونه مفهوماً علمياً ؟

فالربط بين المفاهيم الدينية والعلمية يمثل حرجاً شديداً في الغرب و في الحضارة المادية الحديثة بصفة عامة والسبب ما لاقاه العلم ورجاله قديماً على يد الكنيسة من اضطهاد حتى أن العلم لم يقف على يديه إلا بعد أن تم فصله تماماً عن المفاهيم الدينية التي كانت ترى الارتباط بين القوة الخارقة والتصميم الواعي من الأمور البديهية . ولقد حاول علماء البيولوجيا لفترة طويلة فرض سيطرة النظرية البيولوجية التي تستند إلى النظرة الآلية إلا أن الكشوفات العلمية المركزة على تركيب الكائن الحي أوضحت أن الآلية لا يمكن أن تكون علماً متكامل الأبعاد قادر على فهم الظواهر البيولوجية بشكل كامل فالفكرة المركزية كانت قائمة لدى أنصار التطور أن الجسم الحيواني مجرد امتداد متناهي إلا أن الدراسات الحديثة وفق ما يرى جاكوب أثبتت أنه جوهر نفسي فيزيقي والمحاولة القائمة لتشكيل بيولوجيا حيوانية خالصة بعيدة عن أي مضمون ماورائي تظهر لنا مقاومة هذه الظواهر أن تكون مجرد كينونة سطحية لا تحتمل أي بعد غائي .

ويرى "جاكوب" أن من المحاولات التي تم السعي إليها لمواجهة التصميم وأقصاء الغائية هي المماثلة ما بين الصناعي والطبيعي لكن هذه المحاولة اصطدمت بجوانب عدة في حياة الحيوان كالنمو والتوالد والبقاء والتفرد والتي تعبر عن اختلاف أساس بين الآلة الحيوان والآلة الآلية ، وبالرغم من السعي الدؤوب من قبل علماء التطور للمطابقة بين هاتين الصورتين من مبدأ أن توالد المتعضي هو توالد الجزيئات التي يتألف منها.<sup>7</sup> إلا أن هذه المطابقة تخفي ورائها في أغلب الأحيان شيئاً أساسياً هو الذي يمنح صورة الحيوان القاعدة الأساسية والتي نستشف بحكم كونها غائية تتم عن ذكاء فأقصاء الغائية على صعيد الفعل الطبيعي ينقلها إلى صعيد الفعل الإلهي .

<sup>7</sup> -المصدر السابق نفسه ، ص 20 .

كما أن ملاحقة الغائية والالية كل على حدا يظهر الكثير من نقاط الإتفاق ما بين المفهومين ،ومنها أن اختراع آلة لا يكون إلا بعلاقة سببية صرفة مادية إلا أن صنع هذه الآلة لا يمكن أن يفهم دون الغاية من هذه الآلة التي يتوخاها الصانع أي يمكننا القول حتى لو نجحت المطابقة ما بين الفكر المادي الآلي وتركيبية الحيوان ستبقى الغائية موجودة ووصولنا لهذه النتيجة يحتم علينا الإعتراف أن التفاصيل التي نراها في أجساد الكائنات التي يتوخاها المصمم الذكي تترايط فيما بينها لتحقيق غاية معينة تسعى لتحقيقها فالتفسيرات الالية والسببية الصرفة بالرغم من وضوحها في كثير من المظاهر الاحيائية التي مهدت للدراسة الجزيئية الحديثة والتي أثبتت أن التطور المحكوم بمصادفة لا يمكن أن يفسر كل شيء فالآلية ضرورية لنجاح المشروع الغائي في الطبيعة كما أن كل أله ينبغي أن يكون لها معنى لأن الآلية ليست الترابط العرضي للحركة لذلك من المستحيل أنكار الغائية في الآليات البيولوجية<sup>8</sup> .<sup>7</sup> ومن وجهة نظر الإحيائية الحديثة أن الغائية التي تظهر في العالم الحي في أغلب الموجودات الحية وفي سلوكها يمكن أن نقول عنها أنها الخاصة التي تمكن هذا الإستمرار من الحفاظ على بقاءه ضمن منظومة كبيرة من الكائنات في سياق الصراع الحاصل بين الموجودات ونرى ذلك في انجذاب الكائنات لبعضها وسلوكها المغرض وغيرها ومن الطبيعي أن الكائن يكون بحكم الضرورة مضطر لتغيير سلوكه الحياتي بحسب ظروف المنظومات المحيطة به التي تؤدي للضغط من أجل تغيير البرنامج إلى ما يلائم العناصر البيئية الجديدة بهذا الكائن بحيث يستطيع من زاوية أن يحافظ على بقاءه ومن زاوية أخرى يستطيع أن يورث برنامجا وراثي إلى الأجيال القادمة .

#### رابعاً : التوجه الجديد للبيولوجيا :

في سياق الإطلاع على البيولوجيا الحديثة ودراستها لهذه المفاهيم توجهت البيولوجيا لدراسة موضوعاتها دراسة جزئية كركيزة أساسية وحجر أساس أي أنها تتناول كل عضو من الكائن الحي على حدا ومحاولة دراسته بصورة مفردة لمعرفة آلية تكونه وعمله ومن ثم الإنتقال إلى ضمن المنظومة الإحيائية التي يعمل بها هذا العضو إلا أن هذه الدراسة الإلية بالطبع لا تقضي إلى نتائج جديرة بالإهتمام لأننا إذا ما تناولنا أي منظومة حية مقارنة مع الآلة الصناعية ،ودرسناها بوجود عنصر التوالد الذي يمثل المركز والغاية في العالم الحي لكل موجود حي ، سنجد أنه إذا ما تم إعطاء هذه الآلة القدرة على التوالد سوف يصبح التوالد الموجود فيها توالد ذاتي وأن المنتجات التي سوف تظهر كنسيج طبق الأصل عن النسخة الأم ستكون أقل قدرة على التكيف إذا كانت الطفرة التي تحدث في بنائها وراثي محكومة بمصادفة عشوائية نظراً لتردي الأنواع الجديدة وإنتاج أنواع غير قادرة على التكيف وفيما يتعلق بحقيقة الموجودات الحية وظواهرها المرئية كانت النظرة القديمة للكائنات من زاوية ما وراثية وظيفية العلوم الأساسية ومن ضمنها علم البيولوجيا النظر إلى البنية المرئية لمعرفة سبب وجود هذا الكائن والذي يكون متضمن في صورة هذا الكائن الذي يكون في صورة حقيقة مخبأة في ما وراء هذه البنية التي تعتبر من جزء في كل يؤلف العالم الحي من دون الوقوف عند البنية الجزيئية لهذا الكائن وكيفية ظهوره للوجود وألية عمل المتعضي التي ستصبح بدورها من مهمة العلوم المعاصرة التي عدلت عن التفكير في الحقيقة الكلية الموجودة في هذه الكائنات لتدخل في صميم هذه الكائنات إذ أن الباب الوحيد لعلم البيولوجيا القديم هو القياسات السطحية للكائن الحي بالنظر إلى العلاقات الظاهرة لهذه الكائنات وهذا ما عبر عنه عالم الكيمياء البريطاني الشهير " بورتا "بقوله : (( يمكن الإستدلال على المقاصد الإلهية من خلال تشابه الاشياء ))<sup>9</sup> .

<sup>8</sup> paLey.wiLLiam:Natural theology.Oxf.univer 1960.P.251.

<sup>9</sup> - pLanting.ALrin:the Natureof Necessity.Oxfordunivir.London.1974.p.183.

وبالرغم من ذلك فإن الدخول إلى داخل المنظومات الحية أظهر تكامل المنظومات وتفاعل عناصرها مع بعضها بعض وفقاً للهدف الذي يسعى إليه الكل ويضاف إلى ذلك تفاعلات هذه العناصر بحيث أن كل عنصر منها مهما بلغت دقته يتوقف عمله ووجوده على الآخر فيكون العنصر وفق ما يرى "فرانسوا جاكوب" على المستوى الإحيائي الدقيق سبب له ونتيجة في وقت واحد .

فالتأثير المتبادل الذي يدفع المنظومة إلى التكامل ويحافظ على وحدتها إضافة لكافة الصفات التي نراها في الاحياء وكل الانشطة التي تظهر فيها في سياق سعيها للحفاظ على بقائها لا تمثل أبعد من ترجمة للتفاعلات الداخلية في هذه الكائنات فالانسجام داخل الكائنات الحية يرافقه توافق مع ما يظهر من الكائنات وفي هذه التوافقات تكمن نقطة القوة في الحجج الغائية التي مازالت مستمرة بقوة في البيولوجيا المعاصرة وهنا يمكننا القول إن العلم لعب دوراً مهماً في توسيع مجال عجائب الطبيعة إذ إنه أظهر وجود الترتيب من أصغر الذرات إلى أكبر المجرات فالنظرة المادية الحديثة ترى أن المادة والطاقة تستطيعان أن تتطمان نفسيهما بمختلف الأشكال وتظهران أي نظام معقد دون أي تدخل خارجي ومن أبرز أوجه النقد التي تم توجيهها لأصحاب النظرة المادية هو أن العلم المادي قد سلب الكون من جميع أسراره وغاياته والنقاش المفصل للعالم الفيزيائي هو إما مصادفة لا منطق له أو نتيجة حتمية لقوانين ميكانيكية خالية من أي بعد عقلي أو غائي فالفيزيائي "ستيفن فاينبرغ" يعتقد أنه كلما بدا الكون غير قابل للفهم كلما بدا أكثر غائية<sup>10</sup>.

ويعكس عالم الجيولوجيا "جاك مونود" هذا الشعور الغريب بوجود الإنسان ضمن هذه الضخامة الفارقة للحس في الكون ومصيره وواجبه ليسا مكتوبين والذي لا بد من التوقف عنده هو القوانين الصارمة التي لازالت من ملايين السنين تحكم تحولات المادة وتقلباتها لدرجة أن أي تغيير في أي قانون يؤدي إلى خلل في المنظومة الكونية كلها والتي إذا اقتصرنا على تفسيره بمجموعة من المصادفات المتعاقبة سوف يلقي معارضة كبيرة من الكثير من العلماء فالغراية تكمن في الأساس في مصادفة الوجود الحي بتكون الانسان ذات يوم بانحداره من سلالة حيوانية انفصل عنها في نقطة من التطور كما يقرر دارون في أصل الأنواع وكما يثبت العلم المعاصر فالإشكالية في أن الإنسان لم يكن مرسوم سلفاً ولم يكن ضروري بأي شكل من الأشكال بل هذا الكائن نتيجة خطأ وراثي وتحول مفاجئ في مدونة رموزه الوراثية تحول بعدها عبر ملاسبات وصراعات ونجاحات وإخفاقات نحو إنشاء العلم والحضارة .

### الخاتمة :

نستنتج من خلال دراستنا للبعد المعرفي المفهوم التصميم المتجذر في تاريخ العلوم أن سعي العلماء على وجه التحديد علماء البيولوجيا بعد الأبحاث البيولوجية الحديثة البالغة الدقة التي كشفت التعقيد الهائل للبنية الخفية للكائنات الحية لإثبات وجود التصميم الذكي لم تفلح في اثباته بأثبات وجود التركيب فقط لأن هناك الكثير من الأشياء هي إنتاج حتمي لقوانين الطبيعة ليست ذات تصميم ثابت أودعها المصمم في الأنواع حيث يبقى التناغم بين احتياجات الكائن والتصميم قائماً . لأنه في الوقت الذي أوصلتنا الأبحاث الحديثة إلى رؤية تعقيد هائل وبالغ في البنية الخبيثة في نفس الوقت أوضحت جميع الدراسات كما رأينا عند فرانسوا جاكوب أن البرامج الوراثية للأحياء لا تتيح التدخل في هذه الدقائق البالغة التعقيد والغاية الوحيدة التي يسعى إليها الكائن الحي التي كان ينظر إليها فيما سبق على إنها إرادة خارجية تتجسد في البناء الحي ، أصبحت مجموعة من الغايات الجزئية تأتلف مع بعضها بعض لإتمام البناء الحي

<sup>10</sup> جاك مونود: المصادفة والضرورة ، تر : حافظ الجمالي ، دار طلاس ، دمشق 1997، ص 154.

لأن إقصائها بشكل كامل يعد من المستحيل فليس من الممكن أن يكون البناء الحي مجرد تركيب سطحي لا يحتمل أي بعد غائي فتصبح هنا الخاصية الغائية التي نراها في هذا التصميم هي السمة الأساسية التي تمكن الكائنات ضمن المنظومة الحية من الإستمرار في البقاء بما يتلائم مع انضباط المنظومة الإحيائية الكلية .

### المصادر والمراجع

- 1 فرانسوا جاكوب : *منطق العالم الحي* ، مركز الأتماء القومي ، بيروت ، 1991م .
- 2 بول ديفيز : *التدبير الإلهي* ، تر : محمد الجواد ، دار الحصاد للنشر والتوزيع ، دمشق ، سوريا ، 2008 .
- 3 جاك مونود: *المصادفة والضرورة* ، تر : حافظ الجمالي ، دار طلاس ، دمشق 1997.
- 4 فرانسوا جاكوب : *لعبة الممكنات* ، تر: احمد الصالح ، مركز الانماء القومي ، بيروت ، 1991.
- 5 هاكيل بيهي : *صندوق دارون الأسود* ، تر : مؤمن الحسن ، دار الحسن للنشر والتوزيع ، ط1 ، مصر ، 2014م .

### المراجع الاجنبية

- 1 -paLey .wiLLiam:*NaturaL theology*.Oxf.univer 1960.
- 2 - pLanting.ALrin:*the Natureof Necessity*.Oxfordunivir.London.1974.